يأتي القول من غير مألوف القول وهو الدابة ؟ لكن ما دام أن الله تعالى أخبر بها فهي حقٌ ، لا ينبغي معارضته ، وعلينا أن نأخذ وقوع ما حدَّث به القرآن قبل أن يكون دليلاً على صدقه فيما يحدث به فيما يكون .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

الفوج : هم الجماعة والزمرة من الناس . وأول مَنْ يُجمع في هذا الموقف هم العتاة والجبابرة الذين تولَّوْا تكذيب آيات الله ، يحشرهم الله أولاً أمام العامة يتقدمونهم ويسبقونهم إلى النار ، كما قال سبحانه عن فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ .. ﴿٩٨﴾ ﴾ [هود]

فكما تقدَّمهم في الضلال في الدنيا يتقدمهم إلى النار في الآخرة ، وحين يرى الضالون إمامهم في الضلال يقدمهم ينقطع أملهم في النجاة ، فربما تعلَّقوا به في هذا الموقف ينتظرونه أنْ يُخلِّصهم ، لكن كيف وهو يسبقهم إلى هذا المصير ؟

ومعنى ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [النمل] قلنا في معنى ﴿ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [النمل] أي : يُمنعون ، والمراد يمنعون أن يسبق أولهم آخرهم[1] بحيث يدخلون جميعاً ، فالحق - تبارك وتعالى - يجمع أولهم على آخرهم (ليشرفوا) سوياً في النار : التابع والمتبوع كلهم سواء في الذلة والمهانة ، فربما حاول أحد العتاة أو الجبابرة أن يسبق حتى لا يراه تابعوه ، فيفتضح أمره ، فيؤخره الله ليفضحه على رؤوس الأشهاد .

---

(١) هذا قول قتادة فيما نقله القرطبي في تفسيره (٧/٥١٢٣) وقول مجاهد فيما أورده السيوطي في الدر المنثور (٦/٣٨٤) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم . وهناك قول آخر : أي يساقون . قاله ابن زيد . وقال القرطبي : أي يُدفعون ويُساقون إلى موضع الحساب .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

فى سورة الأعراف يُورد الحق ـ تبارك وتعالى ـ مذكرة تفصيلية لهذا الموقف ، ولهذا الحوار الذى يدور فى عرَصات القيامة ، فيقول تعالى :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأعراف]

﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

قوله ﴿ وَوَقَعَ .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [النمل] أى : وجب لهم العذاب ﴿ بِمَا ظَلَمُوا .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [النمل] وكأنه شىء محسوس يسقط على رؤوسهم ﴿ فَهُمْ لا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [النمل] فقد خرستْ ألسنتهم من هَوْل ما رأوْا ، فلا يجدون كلاماً ينطقون به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

ينتقل السياق من الكلام عن الآخرة إلى آية كونية ، وهذه سمة من سمات أسلوب القرآن الكريم ، حيث يراوح بين الدعوة إلى الإيمان وبين بيان الآيات الكونية ، فبعد أن حدثنا عن الآخرة ذكر هذه الآية الكونية ، وكأنه يقول : لا عُذْر لمن يُكذِّب بآيات الله ؛ لأن الآيات موجودة مشاهدة .

لذلك قال : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [النمل] أى : ألم يعلموا ويشاهدوا ﴿ أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [النمل] أى : للنوم وللراحة ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [النمل] أى : بما فيه من الأشعة والضوء الذى يُسبب الرؤيا .

وسبق أنْ بيَّنا دور العالم المسلم ابن الهيثم فى تصحيح نظرية رؤية الأشياء ، وكانوا يعتقدون أن الشىء يُرى إذا خرج الشعاع من العين إليه ، والصحيح أن الشعاع يخرج من الشىء المرئى إلى العين ، فكأن الشعاع هو الذى يُبصر ، فهو سبب الرؤيا ، ولولاه لا نرى الأشياء .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [النمل] فربك - عزّ وجلّ - نظَّم لك حركة حياتك بليل تسكن فيه ، وتخلد للراحة ونهار تسعى فيه وتبتغى من فضل الله كما قال تعالى : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [القصص]

ولن تستقيم لنا حركة الحياة إلا إذا سرْنا على هذا النظام الذى ارتضاه الله لنا ، فإنْ قلبَ الناس هذه الطبيعة فسهروا حتى الفجر ، فلا بُدَّ أنْ يلاقوا عاقبة هذه المخالفة فى حركة حياتهم : تكاسلاً وتراخياً وقلة فى الإنتاج .. إلخ .

والحق - تبارك وتعالى - يشرح لنا هذه القضية فى موضع آخر :

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا[1] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص]

ففى الكلام عن الليل قال : ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١)﴾ [القصص] وعن النهار قال : ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص] لماذا ؟ قالوا : لأن حاسة الإدراك فى الليل هى السمع ، وفى النهار البصر . وفى هذا إشارة إلى طبيعة كل منهما حتى لا نُغيِّرها نحن ، فنسهر الليل ، وننام النهار .

وفى قوله تعالى ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣)﴾ [القصص] ما يسميه العلماء باللف والنشر[2] ، أى : لفّ المحكوم عليه وهو الليل والنهار معاً ، ثم نشر حكم كل منهما على وجه الترتيب : لتسكنوا فيه وهى تقابل الليل ، ولتبتغوا من فضله ، وهى تقابل النهار .

إذن : بعد أنْ استدل الحق - تبارك وتعالى - بالموجود فعلاً من آيتى الليل والنهار أراد أنْ يستدل بعدمهما فى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا .. (٧١)﴾ [القصص] و ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا .. (٧٢)﴾ [القصص]

---

(١) السرمد : الزمن الطويل أو الدائم . [القاموس القويم ١/٣١٢] .

(٢) اللف والنشر : هو أن يُذكر شيئان أو أشياء ، إما تفصيلاً بالنص على كل واحد أو إجمالاً ، بأن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد ، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك ، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم ، ويفوِّض إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به ، ومثال الإجمالى قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ .. (١١١)﴾ [البقرة] أى : وقالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا اليهود . وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا النصارى . [راجع تفصيل هذا فى البرهان فى علوم القرآن للسيوطى ٣/٢٨٠] .

ثم يعود السياق مرة أخرى إلى الحديث عن القيامة :

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ(١) وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧)﴾

وكأن الله تعالى يقول لى : التفتْ إلى العبرة في الآيات الكونية ، حيث ستنفعك في يوم آت هو يوم القيامة ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ .. (٨٧)﴾ [النمل] وهو البوق ﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ .. (٨٧)﴾ [النمل] والفزع : الخوف الشديد الذى يأخذ كلَّ مَنْ فى السموات ، وكل مَنْ فى الأرض ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ.. (٨٧)﴾ [النمل] قالوا : هم الملائكة : إسرافيل الذى ينفخ فى الصور ، وجبريل ، وميكائيل ، وعزرائيل(٢) .

لذلك لما تكلم سيدنا رسول الله ﷺ عن مسألة الصعق هذه قال : « فأفيق من الصعقة فأجد أخى موسى ماسكاً بالعرش »(٣) ذلك لأن موسى عليه السلام صعق في الدنيا مرة حين تجلَّى ربه للجبل ، كما حكى القرآن : ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا .. (١٤٣)﴾ [الأعراف]

---

(١) عن أبى هريرة فى قوله ﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ .. (٨٧)﴾ [النمل] قال : هم الشهداء . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/ ٣٨٤) وعزاه لسعيد بن منصور وابن جرير الطبرى . قال القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥١٢٦) : « وهو قول سعيد ابن جبير أنهم الشهداء متقلدو السيوف حول العرش ، وحديث أبى هريرة صححه القاضى أبو بكر بن العربى فليعول عليه ، لأنه نص فى التعيين وغيره اجتهاد ، والله أعلم » .

(٢) قاله مقاتل ، وفيما أورده عنه القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥١٢٦) .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٩٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٣٧٤) بنحوه من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : « الناس يُصعقون يوم القيامة فأكون أول من يُفيق ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدرى أفاق قبلى أم جُوزى بصعقة الطور » .

وما كان الله تعالى ليجمع على نبيه موسى عليه السلام صعقتين ، لذلك لم يُصعَق صعقة الآخرة .

وقوله سبحانه : ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧)﴾ [النمل] أى : صاغرين أذلاء ، لا يتأبى على الله منهم أحد ، حيث لا قدرةَ له على ذلك ؛ لأن القيامة أنهتْ الاختيار الذى كان لهم فى الدنيا ، وبه ملّكهم الله شيئاً من الملْك : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ .. (٢٦)﴾ [آل عمران]

فأعطى الله تعالى طرفاً من الملْك ، ووهبه لبعض عباده فى دنيا الأسباب والاختيار ، أمَّا فى الآخرة فالملْك لله تعالى وحده ، لا ينازعه فيه أحد : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

فى القيامة يُنزع منك كلّ شيء تملكه وكلّ قدرة لك على ما تملك حتى جوارحك لا قدرةَ لك عليها ، ولا إرادةَ لتنفعل لك ، هى تبع إرادتك فى الدنيا ، وبها ترى وتسمع وتمشى وتبطش ، أمَّا فى الآخرة فقد سُلبت منك هذه الإرادة ، بدليل أنها ستشهد عليك ، وتُحاجّك يوم القيامة .

ثم ينتقل السياق بنا مرة أخرى إلى آية كونية :

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨)﴾

قوله تعالى ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً .. (٨٨)﴾ [النمل] أى : تظنها ثابتة ، وتحكم عليها بعدم الحركة ؛ لذلك نسميها الرواسى والأوتاد ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ .. (٨٨)﴾ [النمل] أى : ليس الأمر كما تظن ؛ لأنها

تتحرك وتمر كما يمرّ السحاب ، لكنك لا تشعر بهذه الحركة ولا تلاحظها لأنك تتحرك معها بنفس حركتها .

وهَبْ أننا فى هذا المجلس ، أنتم أمامى وأنا أمامكم ، وكان هذا المسجد على رحاية أو عجلة تدور بنا ، أيتغير وضعنا وموقعنا بالنسبة لبعضنا ؟

إذن : لا تستطيع أن تلاحظ هذه الحركة إلا إذا كنتَ أنت خارج الشيء المتحرك ، ألاَ ترى أنك حين تركب القطار مثلاً ترى أن أعمدة التليفون هى التى تجرى وأنت ثابت .

ولأن هذه الظاهرة عجيبة سيقف عندها الخَلْق يزيل الله عنهم هذا العجب ، فيقول ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ .. (٨٨) ﴾ [النمل] يعنى : لا تتعجب ، فالمسألة من صُنْع الله وهندسته وبديع خَلْقه ، واختار هنا من صفاته تعالى : ﴿ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ .. (٨٨) ﴾ [النمل] يعنى : كل خَلْق عنده بحساب دقيق مُتقَن .

البعض(١) فهم الآية على أن مرَّ السحاب سيكون فى الآخرة ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ (٥) ﴾ [القارعة]

وقد جانبه الصواب لأن معنى ﴿ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ (٥) ﴾ [القارعة] أنها ستتفتت وتتناثر ، لا أنها تمر ، وتسير هذه واحدة ، والأخرى أن الكلام هنا مبنيٌّ على الظن ﴿ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً .. (٨٨) ﴾ [النمل] وليس فى القيامة ظن ؛ لأنها إذا قامتْ فكلُّ أحداثها مُتيقنةٌ .

ثم إن السحاب لا يتحرك بذاته ، وليس له موتور يُحركه ، إنما يُحرِّكه الهواء ، كذلك الجبال حركتها ليست ذاتيةً فيها ، فلم نَرَ جبلاً

---

(١) قال القشيرى : وهذا يوم القيامة . [نقله القرطبى فى تفسيره ٧ / ٥١٢٧] .

تحرَّك من مكانه ، فحركة الجبال تابعة لحركة الأرض ؛ لأنها أوتاد عليها ، فحركة الوتد تابعة للموتود فيه .

لذلك لما تكلم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عن الجبال قال : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ[1] بِكُمْ .. (١٥) ﴾ [النحل]

ولو خُلقتْ الأرض على هيئة السُّكون ما احتاجتْ لما يُثبِّتها ، فلا بُدَّ أنها مخلوقة على هيئة الحركة .

في الماضي وقبل تطور العلم كانوا يعتقدون في المنجِّمين وعلماء الفلك الكفرة أنهم يعلمون الغيب ، أما الآن وقد توصَّل العلماء إلى قوانين حركة الأرض وحركة الكواكب الأخرى في المجموعة الشمسية واستطاعوا حساب ذلك كله بدقة مكَّنتهم من معرفة ظاهرة الخسوف والكسوف مثلاً ونوع كل منهما ووقته وفعلاً تحدث الظاهرة في نفس الوقت الذي حددوه لا تتخلف .

واستطاعوا بحساب هذه الحركة أنْ يصعدوا إلى سطح القمر ، وأن يُطلقوا مركبات الفضاء ويُسيِّروها بدقة حتى إنَّ إحداها تلتحم بالأخرى في الفضاء الخارجي .

كل هذه الظواهر لو لم تكن مبنية على حقائق مُتيقَّنة لأدتْ إلى نتائج خاطئة وتخلفتْ .

ومن الأدلة التي تثبت صحة ما نميل إليه في معنى حركة الجبال ، أن قوله تعالى ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ .. (٨٨) ﴾ [النمل] امتنان من الله تعالى بصنعته، والله لا يمتنُّ بصنعته يوم القيامة ، إنما

---

(١) ماد يميد : تحرَّك واهتزَّ . أي : لئلا تميد وتضطرب فالجبال العالية توازن البحار العميقة . [القاموس القويم ٢/٢٤٦] .

الامتنان علينا الآن ونحن فى الدنيا[1]

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾[2]

لهذه الآية صلة لطيفة بما قبلها : فكما أن الآيات الكونية التى أخبر بها الحق - تبارك وتعالى - حقيقة واقعة ، وتأكدتَ أنت من صدْقها حيث شاهدتها بنفسك وأدركتها بحواسك ، فكما أخبرناك بهذه الآيات نُخبرك الآن بحقيقة أخرى ينبغى أن تصدقها ، وأن تأخذ من صدْق ما شاهدتَ دليلاً على صدْق ما غاب عنك ، فربُّك يُخبرك بأنه ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا .. ﴿٨٩﴾ ﴾ [النمل]

الحسنة : فعل الانفعال فيه يكون لمطلوب الله فى العبادة ، فإن فعلتَ الفعل على مراد الله تعالى كانت لك حسنة ، والحسنة عند الله بعشر أمثالها ، وتضاعف إلى سبعمائة ضِعْف على مقدار طاقة الفاعل من الإخلاص والتجرُّد لله فى فعله .

والمعنى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ .. ﴿٨٩﴾ ﴾ [النمل] أى : فى الدنيا ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا .. ﴿٨٩﴾ ﴾ [النمل] أى : ناشىء عنها فى الآخرة .

ونسمع من البعض مَنْ يقول : إذا كان قولنا : لا إله إلا الله

(١) قال الماوردى فى تفسير الآية : أنها ضَرْب للمثل ، وفيما ضُرب له ثلاثة أقوال :
أحدها : أنه مثل ضربه الله تعالى للدنيا يظن الناظر إليها أنها واقفة كالجبال ، وهى آخذة بحظها من الزوال كالسحاب ، قاله سهل بن عبد الله .
الثانى : أنه مثل ضربه الله للإيمان تحسبه ثابتاً فى القلب وعمله صاعد إلى السماء .
الثالث : أنه مثل ضربه الله للنفس عند خروج الروح والروح تسير إلى العرش . [نقله القرطبى فى تفسيره ٥١٢٨/٧] .

(٢) قال ابن عباس ومجاهد : أى وصل إليه الخير منها . وليس « خير » للتفضيل . قال عكرمة وابن جريج : أما أن يكون له خير منها يعنى من الإيمان فلا . فإنه ليس شىء خيراً ممن قال لا إله إلا الله ولكن له منها خير . [تفسير القرطبى ٥١٢٩/٧] .

حسنة فالثواب عليها خَيْر منها . وهذا القول ناتج عن فَهْم غير دقيق لمعنى الآية ؛ لأن الله تعالى الذى أُقر به فى الشهادة هو الذى يهبنى هذا الثواب ، فمَنْ جاء بالحسنة له خير ناشىء من هذه الحسنة ومُسبَّب عنها . كما لو قلت : مأمور المركز خير من وزير الداخلية : أى خَيْر جاءنا من ناحيته ، ووصل إلينا من طرفه ، أليس هو صاحب قرار تعيينه ؟

ومن ذلك ما يقوله أصحاب الطريق والمجاذيب يقولون : محمد خير من ربه ، وفى مثل هذه الأقوال لعب بأفكار الناس وإثارة لمشاعرهم ، وربما تعرض للإيذاء ، فكيف يقول هذه الكلمة ومحمد مُرْسَل من عند الله ؟ وحين تُمعن النظر فى العبارة تجدها صحيحة ، فمراد الرجل أن محمداً خير جاءنا من عند الله .

أو : يكون المعنى ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا .. (٨٩)﴾ [النمل] أن الجزاء على الحسنة خير من الحسنة ؛ لأنك تفعل الحسنة فعْلاً موقوتاً ، أمّا خيرها والثواب عليها ، فسيظل لك خالداً بلا نهاية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ(١) فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾

معنى ﴿فَكُبَّتۡ .. (٩٠)﴾ [النمل] ألقيت بعنف ، وخصّ الوجوه مع أن الأعضاء كلها ستكبُّ ؛ لأنه أشرفها وأكرمها عند صاحبها ، والوجه

(١) أى : بالشرك . قاله ابن عباس والنخعى وأبو هريرة ومجاهد وقيس بن سعد والحسن . قال القرطبى فى تفسيره (٥١٣٠/٧) : « وهو إجماع من أهل التأويل فى أن الحسنة لا إله إلا الله ، وأن السيئة الشرك فى هذه الآية » .

موضــع العزة والشــموخ ، فــالحق ـ تبارك وتعــالى ـ يريد لهم الذلَّة والمهــانة ، وفى موضع آخر يُبيِّن أن كل الأعضــاء ستكبُّ فى النار ، فيقول تعالى : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الشعراء]

وليس هذا المصير ظلماً لهم ، ولا افتراءً عليهم ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النمل] وكمــا يقول ســبحــانه : ﴿ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [غافر] فلم نجامل صاحب الحسنة ، ولم نظلم صاحب السيئة .

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

فما دام أن الله تعالى أعطانا هذه المعلومات التى تلفتنا إلى قدرته فى آياته الكونية ، وذكَّرنا بالآخرة ، وما فــيها من الثواب والعــقاب ، فمــا عليك إلا أنْ تلتزم (عرفت فــالزم) واعلم أن مَنْ أبلغك منهج الله سيسبقك إلى الالتزام به ، فالشرع كما أمرك أمرنى .

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ .. ﴿٩١﴾ ﴾ [النمل] فإنْ طلبتُ منكم شيئاً من التكاليف فقد طالبتُ نفسى به أولاً ؛ لأننى واثق بصدق تبليغى عن الله ؛ لذلك ألزمتُ نفسى به .

والعبادة كما قلنا : طاعة العابد للمعبود فيما أمر وفيما نهى ؛ لأن ربك خلقك من عَدَم ، وأمدك من عُدْم ، ونظَّم لك حــركة حياتك ، فإنْ كلَّفك فاعلم أن التكليف من أجلك ولصالحك ؛ لأنه رب مُتولٍّ لتربيتك ، فإنْ تركك بلا منهج ، وبلا افعل ولا تفعل ، كانت التربية ناقصة .

إذن : من تمام الربوبيــة أن يوجهنى ربى كمــا نُوجِّه نحن أولادنا الصــغار ونُربِّيــهم ، ومن تمام الربوبيــة أن توجد هذه الأوامــر وهذه

النواهى لمصلحة المربَّى ، وما دام أن ربك قد وضعها لك فلا بُدَّ أن تطيعه .

لذلك نلحظ فى هذه الآية ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ الْبَلْدَةِ .. (٩١)﴾ [النمل] ولم يقُلْ : أمرت أن أطيع الله ؛ لأن الألوهية تكليف ، أمّا الربوبية فعطاء وتربية ، فالآية تُبيِّن حيثية سماعك للحكم من الله ، وهى أنه تعالى يُربِّيك بهذه الأوامر وبهذه النواهى ، وسوف تعود عليك ثمرة هذه التربية .

لذلك ، الصِّديق أبو بكر حينما حدثوه عن الإسراء والمعراج لم يُمرِّر المسألة على عقله ، ولم يفكر فى مدى صدْقها ، إنما قال عن رسول الله : « إنْ كان قال فقد صدق »[1] فالميزان عنده أن يقول رسول الله ، ثم يُعلِّل لذلك فيقول : إنى لأُصدِّقه فى الخبر يأتى من السماء ، فكيف لا أُصدِّقه فى هذه .

وقال تعالى : ﴿رَبَّ هَـٰذِهِ الْبَلْدَةِ .. (٩١)﴾ [النمل] أى : مكة وخصَّها بالذكْر ؛ لأن فيها بيته ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا .. (٩٦)﴾ [آل عمران] ثم يذكر سبحانه وتعالى من صفات مكة ﴿الَّذِى حَرَّمَهَا .. (٩١)﴾ [النمل] فهى مُحرَّمة يحرم فيها القتال ، وهذه وسيلة لحماية العالم من فساد الحروب وفساد الخلاف الذى يُفضى بكل فريق لأنْ تأخذه العزة ، فلا يجد حلاً إلا فى السيف .

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٢ / ٣٦١) من حديث عائشة أنها قالت : « لما أُسْرى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدَّقوه وسعوا بذلك إلى أبى بكر فقالوا : هل لك فى صاحبك يزعم أنه أسرى به فى الليل إلى بيت المقدس قال أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : وتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ، قال : نعم ، إنى لأصدقه بما هو أبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة ، فلذلك سُمِّى أبو بكر الصديق » .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعطى لخَلْقه فرصة للمداراة وعُذْراً يستترون خلفه ، فلا ينساقون خلف غرورهم ، فحين تمنعهم من الحروب حُرْمة المكان فى الحرم ، وحُرْمة الزمان فى الأشهر الحرم ـ لأن كل فعل لا بُدَّ له من زمان ومكان ـ حين يمنعهم الشرع عن القتال فإن لأحدهم أن يقول : لم أمتنع عن ضعف . ولولا أن الله منعنى لفعلْتُ وفعلْتُ ، ويستتر خلف ما شرَّع الله من منع القتال ، إلى أنْ يذوق حلاوة السلام فتلين نفسه ، وتتوق للمراجعة .

ولحرمة مكة كان الرجل يلاقى فيها قاتل أبيه ، فلا يتعرَّض له احتراماً لحرمة البيت ، وقد اتسعتْ هذه الحرمة لتشمل أجناساً أخرى ، فلا يُعضد[1] شجرها ، ولا يُصاد صَيْدها .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ .. (٩١) ﴾ [النمل] لأن الله تعالى حين يصطفى من الملائكة رسلاً ، ومن الناس رسلاً ، ويصطفى من الأرض أمكنة ، ومن الزمان ، يريد أن يشيع الاصطفاء فى كل شىء .

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يُحَابى أحداً ، فحين يرسل رسولاً يُبلِّغ رسالته للناس كافة ، فيعود نفعه على الجميع ، وكذلك فى تحريم المكان أو الزمان يعود نفعه على الجميع ؛ لذلك عطف على ﴿ الَّذِي حَرَّمَهَا .. (٩١) ﴾ [النمل] فقال ﴿ كُلُّ شَيْءٍ .. (٩١) ﴾ [النمل] فالتحريم جُعل من أجل هؤلاء .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) ﴾ [النمل] أى : المنفذين لمنهج الله يعنى : لا أعتقد عقائد أخبر بها ولا أُنفِّذها ، وقد قرن الله تعالى بين الإيمان والعمل الصالح ؛ لأن فائدة الإيمان أنْ

(١) عضد الشجر يعضده ، فهو معضود : قطعه بالمعضد . والعضيد : ما قُطِع من الشجر أى يضربونه ليسقط ورقه فيتخذوه علفاً لإبلهم . [لسان العرب ـ مادة : عضد] .

تعملَ به ، كما قال تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ③ ﴾ [العصر]

فالله تعـالى يريد أن يُعدِّى الإيمان والأحـكام إلى أن تكون سلوكاً عملياً فى حركة الحياة .

﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْءَانَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾

أنت حين تقرأ القرآن فى الحقيـقة لا تقرأ إنما تسمع ربنا يتكلم ، ومعنى ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ .. ﴿٩٢﴾ ﴾ [النمل] يعنى : استدم أُنْسك بالكتاب الذى كُلِّفت به ، ليدل على أنك من عشْـقك للتكليف ، عشقتَ المكلِّف ، فأحببتَ سماعه ، وتلاوة القرآن فى ذاتها لذة ومتعة .

فأنا سآخذ من تلاوته لذةً ، وأستديم البلاغ بالقرآن للناس ، وبعد ذلك أنا نمـوذجٌ أمام أمتى ، كـمـا قـال سبـحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب]

يعنى : شىء يُقتـدى به ، وما دام أن الرسول قدوة ، فكل مـقام للرسول غـير الرسالة مَنْ ســار على قدم الرسول يأخـذ منه ، وكذلك مكان كل إنسان فى التقوى ، على قَدْر اعتـباره واقتدائه بالأُسْوة ، أما الرسالة فدَعْك منها ؛ لأنك لن تأخذها .

ومعنى ﴿ اهْتَدَىٰ .. ﴿٩٢﴾ ﴾ [النمل] أى : وصلتْه الدلالة واقـتنع بها ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ .. ﴿٩٢﴾ ﴾ [النمل] لأن الله سيعطيه المعونة ، ويزيده هدايةً وتوفيقاً ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

إذن : فالهداية والتقوى لا تنفع المشرِّع ، إنما تنفع العبد الذى اهتدى.